الحوار في تجليّاته التاريخية في الحضارة العربية الاسلامية

طريف الخالدي

لعل من المفيد ان ابدأ ببعض التعريفات ذات الصلة بلفظة "حوار" . الحوار في قواميس اللغة هو ، في الاصل والجذر، حركة دائرية: حار يحور حوراً اي رجع عن الشيء والى الشيء، اي الرجوع عن حالٍ والى حالٍ اخرى. والتحاور هو التجاوب، اي الاخذ والرد في الكلام. وبالترادف مع لفظة "حوار" قد نستحضر الفاظاً اخرى كالجدل مثلاً الذي هو ، في الاصل والجذر، شِدّة الفتل، جدله جَدْلاً اي صرعه او غلبه، والمجادله هي المناظره والمخاصمة.

اكتفي بهذا القدر من النظر في القواميس كي اصل الى ما يلي: غاية الحوار هي ان نتحاور اي نحور وندور لنصل الى حقيقةٍ ما، فيما غاية الجدل هي ان نتغلب على الخصم بصرف النظر عن الحقيقة. ثمة بعض التداخل بين المعنيين، اي بين الحوار والجدل، فالخيط الفاصل بينهما قد يكون باهتاً لكن للحوار في رأيي حيزٌ منفرد عن الجدل وذلك بالنسبة الى غايته ومبتغاه. فالحوار يقتضي فيما يقتضي من مسلّمات ذهنية واخلاقية كصفاء النيّة ، والاخلاص في الوصول الى الحقيقة، والاستعداد لقبول ما يفرضه المنطق، وحرية التعبير عن الرأي، يقتضي التكافؤ بين المتحاورين اذ لا يستقيم الحوار بين عالمٍ

وجاهل مثلاً
او بين قويٍّ وضعيف او بين عاقل واحمق. ولعل ما نسميه اليوم طاولات حوار قد يكون من الانسب ان نسميها طاولات جدل.
لكن ما يهمني اليوم هو حوار الثقافات والحضارات في تجلياتها التاريخية وليس الحوار بالمطلق. وما يهمني بوجه اخص هو الحوار الذي قد نسمّيه مُحرّك الحضارة العربية الاسلامية في عصور ما قبل الحداثة. نزل القرآن في بيئةٍ جدلية صاخبة فترددت اصداءها في الكتاب الذي يشكل الحوار والجدل جزءاً كبيراً من مضمونه ورنين نصّه الادبي {وكان الانسان اكثر شيء جدلاً}.
يتعايش الجدل والحوار في القرآن، فالجدل قائمٌ وواضح المعالم مع اهل الكتاب كما مع الذين كفروا بالرسالة. اما الحوار فهو الدعوة التي تتردد بين الحين والاخر وتخاطب كل ذي عقل فتدعوه الى حيّز متكافىء من الكلام الحر حول الوجود وغايته والى ما هنالك. {تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم} {ولا تجادلوا اهل الكتاب إلا بالتي هي احسن}.
وإذ تقدم الزمن بالحضارة العربية الاسلامية، برز الى الوجود نوعان من الحوار ، احدهما داخلي والاخر خارجي.
اما الحوار الداخلي فاعني به ما قد نسميه ناموس البحث العلمي والتخاطب بين علماء الحضارة العربية في فترة ما قبل الحداثة. وهذا الناموس يتجلى في منهجية تفرض على العالِم

المؤلف لكتاب ما ان يأخذ بآراء كوكبة واسعة من اقرانه العلماء في موضوع ما قبل ان يُبدي هو رأيه الشخصي، ثم ينهي كلامه بلفظة "الله اعلم". اذاً، الوصول الى الحقيقة هو في الجوهر سعيٌ مشترك وليس تفرّداً بالرأي، هو سعي مبني على التحاور مع الاخر، الامر الذي يقتضي نقل وجهة نظر الاخر بدقة وامانة.

سادت هذه المنهجية في كافة العلوم التي ابتدعتها الحضارة العربية، طبيعية كانت هذه العلوم ام فقهية ام انسانية. اما الاية {وفوق كل ذي علمٍ عليم} ففيها من الحث على التواضع ما يعني ان العلم لا نهاية له وان الحقيقة في تحول مستمر. واذا اردنا نموذجاً ناصعاً لامعاً فلن نجد في رأيي افضل من الجاحظ ، فالحوار هو البناء الاساسي في كافة مؤلفاته— الحوار مع الغير ، مع ارسطو كما مع الاعراب. واذا لم يجد محاوراً فهو يحاور ذاته. واستناداً الى هذه المنهجية الحوارية فان القرآن هو بداية المعرفة وليس نهايتها بالنسبة الى الجاحظ والى العديد العديد من اقرانه العلماء.

واتخذ الحوار في المجتمعات العربية الاسلامية شكله النموذجي في المجالس الادبية والعلمية التي تجمع العلماء في مكان واحد للتحاور حول موضوع معين. ولا يخلو الامر من الجدل في بعض الاحيان فقديماً قيل: "داء العلماء الحسد". لكن المجلس هو في الجوهر تجسيدٌ لفكرة الحوار. وثمة بين ايدينا اليوم عدد كبير جداً من هذه المجالس ، بل قد نجزم ان

عددها في كتب الحضارة العربية الاسلامية اكبر بكثير منه في اية حضارة مماثلة في نطاقها الزمني.

التفتُ الان الى الحوار الخارجي، اي الحوار بين الحضارة العربية وغيرها من الحضارات الاقدم منها والمعاصرة لها. لو اخذنا بنظرة تاريخية طويلة الامد لجاز لنا ان نصف الحضارة العربية الاسلامية بانها في الجوهر حضارة عربية-فارسية ذات قشرة اغريقية. والاسترسال هنا ضروري خصوصاً في هذه الايام التي نسمع فيها كلاماً متهافتاً وسمجاً عن "الفُرس" و "المجوس". ففي صُلب الحضارة الاسلامية نجد حواراً معمّقاً ومتفاعلاً بين تراثين حضاريين: عربي وفارسي. تُرى ماذا سيبقى لنا من حضارتنا العربية اذا نبذنا منها "الفُرس المجوس" الاتية اسماءهم : عبد الحميد الكاتب، ابن المقفع، ابن جرير الطبري، الحلّاج، سيبويه، الفارابي، ابن سينا، محمد ابن زكريا الرازي، فخر الدين الرازي، الامام الغزالي ، وغيرهم المئات المئات من الاعلام الذين لعبوا دوراً تأسيسياً في خلق حضارة اسمها الحضارة العربية الاسلامية ؟

ثمة بعض المعالم التي ينبغي التوقف عندها في هذا التاريخ الحضاري الطويل. هناك اولاً ما درجنا على تسميته ب"الشعوبية" وكثيراً ما نصفه بانه كان صراعاً ثقافياً من نوع ما. وعلى العكس من ذلك، الشعوبية في رأيي كانت حواراً حضاريا معمقاً وواسع الارجاء بين الثقافتين العربية والفارسية والذي حدد في نهايته معالم وطبيعة حضارة باكملها. وتخلله

حوار اخر مع الاغريق فاكتملت الحضارة العربية الاسلامية في فترة ما قبل الحداثة واكتسبت شكلها ومضمونها النهائي. لا ادّعي ان هذا الحوار كان خالياً تماماً من الجدل لكن التناغم والتفاعل (اي الحوار) بين عناصره الثقافية المختلفة هو الذي خلق التركيب والتأليف الذي نجده في العديد من الحضارات العالمية ومن بينها حضارتنا العربية. واذا اردنا ان نلمح خيال هذا التفاعل فما علينا سوى ان نتأمل بعض روائع الفن الاسلامي فنرى صوراً لا تنتهي للحوار بين الحضارات.

لا بأس هنا اذا مررنا بسرعة على نظرية "صراع الحضارات" التي صاغها استاذ اميركي هبط عليه الوحي من داعية صهيوني معروف. هناك العديد من المشاكل المتصلة بهذه النظرية ولعل اولها هو سوء استخدام الاستعارة بالمعنى الادبي للكلمة. الافراد يتصارعون، الامم تتصارع، الجيوش تتصارع، المصالح المادية تتصارع، لكن هل تتصارع الحضارات؟ الحضارات لا تتصارع بل تتفاعل وتتحاور واذا اردنا تشبيهاً او استعارةً مناسبة فقد نتكلم عن "تانغو" او "فالس" الحضارات او اذا شئتم "دبكة" الحضارات لا صراعها. فالتفاعل ين الثقافات المختلفة وفي صلبه الحوار هو الذي ينشىء الحضارات ويمنحها زخمها وتألقها.

وماذا عن اليوم والغد؟ لا ريب ان مساحة الحوار وحيويّته وحرّيته قد تقلصت في زماننا الحاضر ، وعلى المستويين الداخلي والخارجي، عما كانت عليه في عصور ما قبل الحداثة.

والاسباب شائكة ومتعددة ولا مجال للخوض فيها هنا. فمجالس العلماء اضحت اليوم منابر الوعّاظ والمجلات الثقافية التي كانت تنقل الحوارات بين علماء العرب قد اندثرت، وليس ابلغ من هذا الامر عدم وجود اية مجلة في عالمنا العربي تُعنى بنقد الكتب. هذا على المستوى الداخلي اما على المستوى الخارجي فان الحوار اليوم، هذا اذا وُجد، يدور مع العالم الغربي حصراً ولا نكاد نأبه للحوار مع الحضارات التي تقع الى الشرق منا.

لكن الخطر الاكبر على الحوار في يومنا الحاضر يكمن في رأيي في تقلّص مساحة حريّة الرأي والمعتقد في عالم اليوم، هذه الحرية التي بدونها لا يعد للحوار معنى. فقد طوّرت الانظمة ، ديمقراطية كانت ام غير ذلك، اساليب تكنولوجية بالغة الدقة للرقابة والتنصت على الافكار كي تبقى تلك الافكار ضمن حدود حددتها لها طبقات اجتماعية مسيطرة ومتداخلة، سياسياً واقتصادياً وإعلامياً ودينياً، والهدف منها الابقاء على الافكار والممارسات العملية حيث هي، اي خارج نطاق اي حوار او نقد او مُسائلة.

اخشى ما اخشاه ان نكون نحن الذين نهتم بالحوار قد جعلنا تلك الرقابة جزءاً من بُنيتنا الفكرية فاستوعبناها وادخلناها الى وعينا لتصبح نوعاً من الرقابة على الذات. ولعل المثال الاوضح على هذا الامر هو تلك السلسلة التي لا تنتهي من الحوارات بين الاديان والتي غرقت منذ زمن بعيد في لغة العموميات

والتفاهة اذ ان هذه الرقابة الذاتية تمنعنا من التحاور الحر الصريح حول مواضيع كالالحاد مثلاً او الميثية والدين او سيطرة الكهنوت على الاخلاق العامة والى ما هنالك. ثمة كوكبة واسعة من المواضيع التي اضحت اليوم، كما يُقال، "حسّاسة" ، بمجرد ان تتبنى حساسيّتها مجموعة ما من البشر وتمنع الحوار الحر حولها.

نعم، يجوز لكم ايها الصديقات والاصدقاء ان تستنتجوا انني اترحم على مساحة الحوار ونطاقه وحريته في عصور ما قبل الحداثة بالمقارنة مع ما نراه حولنا اليوم. ويجوز لنا جميعاً ان نذرف دمعةً او دمعتين على ما آل اليه الحوار في يومنا هذا لكن بدون ان نيأس من رحمة الله.

****